" محاولات الدول فى تنظيم تعاون عالمى "

لحضرة صاحب العزة الأستاذ محمد رفعت بك

مدير عام التعليم الثانوى بوزارة المعارف

إن ارتباط شعوب العالم المتمدين فى نظام سياسى واحد فكرة قديمة يمكن تتبع أصولها فى عصور التاريخ المختلفة .

ففى العصور القديمة كانت غزوات كبار الفاتحين كالاسكندر وقيصر ترمى الى نشر النفوذ الأغريقى والرومانى على التوالى بين الشعوب المعروفة فى ذلك الوقت، وكان النظام الذى أقامته الدولة الرومانية وساد العالم عدة قرون فى ظلال السلم أعمق أثرا وأبقى على الزمن من أى نظام مضى أو جاء بعده الى الآن . فقد كان فى الدولة الرومانية أقوام يختلفون جنسا ولغة ودينا وعبادة فكانت روما تغرس فيهم جميعا حضاراتها وتنشر ثقافتها وتمد طرقها وتقيم جسورها وتطبق قانونها وتمنحهم جميعا حقوق أهل روما نفسها، وكان من أثر هذه الطمأنينة بين الشعوب أن اصطفوا للسلام صفة ينعتونه بها وصلة ينتسب اليها فاطلقوا عليه سلام روما .

غير أن هذا الارتباط كان أساسه القوة وقد قام مستندا الى حراب الفيالق الرومانية التى كانت تحافظ على تخوم الدولة وتمنع عنها غارات أعدائها خارج الحدود . فلما ضعف المستند وبدا للناس أثر انهزام الجيوش الرومانية على أيدى القبائل المتبربرة التى أغارت على أملاك الدولة فى أوروبا انهار البناء من جميع أركانه وعم الاضطراب وانحلت الدولة العالمية التى كانت ملء أسماع الناس وأبصارهم الى أقطاع صغيرة .

وهذا مصير كل نظام يوضع وضعا أو يملى إملاء ويقوم على مجرد القوة والجبروت مهما تباينت العصور واختلفت الأساليب .

جاءت بعد ذلك فترة العصور المظلمة أو العصر الوسيط وهو عصر رغم ما ظهر فيه من انحلال فى جميع المرافق السياسية والاقتصادية والثقافية فإنه قد أضاء بنور الأديان الالهية التى دعت الناس الى عبادة الله تعالى وأشاعت بينهم روح الاخاء والمحبة والمساواة فظهرت المسيحية أولا ثم ظهر الدين الاسلامى الحنيف . وكان الرسل الكرام فى نشر دعوتهم يؤمرون بتعميم رسالاتهم وإعلان الاخاء والمساواة والعدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم. جاء على لسان الرسول الأمين "أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى" وقال الله تعالى فى كتابه الكريم "إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ" "وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" وجاء

فى يوشع من العهد القديم " واقطع لهم عهدا فى ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الأرض واكسر القوس والسيف والحراب من الأرض واجعلهم يضطجعون آمنين" وجاء فى سفر أشعياء " فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل لاترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد " .

وكانت الكنيسة المسيحية قد جذبت اليها أباطرة الرومان فعمد قسطنطين أمبراطور الرومان مسيحيا سنة ٣٢٠/٣/٠/٢ ومنذ ذلك الوقت اتحدت المسيحية والأمبراطورية . فلما سقطت الأمبراطورية قامت الكنيسة تؤدى للشعوب ما كانت روما تؤديه من رعاية وزعامة حتى ورثت الكنيسة عن الدولة الرومانية صفتها العامة فصارت تعرف بالكاثوليكية أى الجامعة وأصبح لبابا روما سلطان روحى أخذ ينمو و يقوى بدخول القبائل المتبربرة فى الدين المسيحى حتى شمل جميع ملوك أوربا وأمرائها وصار البابا هو الهيئة العليا التى يحتكم اليها جميع الملوك والأمراء فى مشاكلهم وخلافاتهم فى عهد شرلمان حتى الأمبراطور نفسه لما أعيد تنشئة الدولة الرومانية المقدسة فى آخر القرن الثانى وصارت له السلطة الزمنية والسياسية كان يدين بتاجه الى البابا ومن عصاه منهم فان البابا لم يكن غفورا ولا رحيما .

وقد كان لاشتراك الأمم فى العقيدة المسيحية توسير الناس فى جميع الأصقاع على نهج مسيحى واحد أثر ظهر فى ارتباطهم معا فى أثناء الحرب الصليبية رغم الحواجز الطبيعية والمسافات الشاسعة التى كانت تفصلهم بعضهم عن بعض ، وفى الحق يعتبر ارتباط الشعوب الأوربية فى أثناء الفترة التى سيطرت فيها الكنيسة والبابوية أقرب النظم الى فكرة التعاون الدولية الحديثة .

غير أن البابوية مالبثت أن انغمست فى الماديات وانصرفت عن طريق التقوى والصلاح فقامت حركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر بزعامة لوثر فانقسمت الكنيسة ودب الخلاف بين المسيحيين وانفرط عقد ذلك الارتباط السياسى والروحى الذى ساد فى العصور الوسطى فترة من الزمن . وكانت الروح الوطنية والقومية قد أخذت تشتد وتموحتى استحالت الدولة الى إمارات ودويلات ثم تكونت من هذه الأمارات ممالك أخذت تعتز كل منها باستقلالها وتفخر باتساع رقعتها حتى وقعت فى حروب ظلت مستمرة الى أن قامت الثورة الفرنسية ، وجاء القرن العشرين ، غير أنه على الرغم من الحروب المتوالية التى اشتركت فيها دول أوربا فى ذلك الوقت لم تكن تلك الفترة خلوا من المشروعات النظرية والآراء السياسية التى كانت ترمى الى تحقيق السلام وتكوين اتحاد عام يشمل الدول المختلفة ، واول هذه المشروعات جادت قريحة الوزير الفرنسى الشهير " سالى " فى عهد ملك فرنسا "هنرى الرابع" آخر القرن السادس عشر ويعرف اقتراحه "بالمشروع العظيم" .

اقترح "سالى" تكوين اتحاد مسيحى من دول "أوربا" تشرف عليه هيئة عليا تقوم بتسوية المشاكل التى تنشأ بين الدول ويخشى منها على السلام، وقد قسم الدول إلى مجموعات متجانسة بجعل مجموعة من الدول الملكية مثل انجلترا وأسبانيا وفرنسا وأخرى من الدول "الجمهورية" مثل سويسرا والبندقية وثالثة من الدول الملكية غير "الوراثية" مثل بولانده والأملاك البابوية "والامبراطورية" نفسها .

وفى ذلك الوقت أيضا ظهر كتاب المشرع الهولندى "جروتيس" عن القانون فى الحرب والسلم، وأهمية هذا الكتاب هو أنه أول محاولة فى درس العلاقات الدولية بين الأمم وترابطها بواسطة القانون .

ثم "وليام بن" الانجليزى الذى أنشأ عهد الأخوة وأنشأ مستعمرة بنسلفانيا فى أميركا ووضح العلاقات بينها وبين الهنود الحمر على أساس من التعاون وتوطيد السلام .

وفى سنة ١٦٩٣ ظهرت رسالته فى سبيل السلام الحاضر والمستقبل فى أوربا، وهى رسالة أساسها مشروع "الوزير" الفرنسى سالى وقد اقترح بن إنشاء برلمان أو "دياط" يجتمع فيه مندوبون عن الدول الأوروبية فى فترات معينة لبحث جميع المشاكل التى يتعذر حلها بالطرق الودية وأنه إذا امتنعت دولة عن قبول حكم البرلمان أو حاولت بالحرب تنفيذ إرادتها فإن الدول الأخرى تتحد معا لقمعها وتعويض الدولة المعتدى عليها، وبهذه الطريقة يصان السلام بين دول "أوروبا" .

ومن ظريف ما اقترحه بن عند بحث التفصيلات الخاصة بتنفيذ مشروعه أن يجتمع البرلمان فى ردهة مستطيلة الشكل لها أبواب عدة يدخل منها ملوك ورؤساء الدول فرادى ويخرجون دون أن تحتك أكتافهم أو تمس كرامتهم بتفضيل واحد على الآخر .

غير أن جميع هذه الآراء والمشروعات لم تحل دون قيام الحرب التى لم تقتصر على أوربا وحدها بل تعدتها إلى المستعمرات الأميركية والأسيويه فى عرض البحار وسبب ذلك أن أوربا لم تكن مستعدة — كما أنها غير مستعدة الآن — لقبول فكرة التعاون والاتحاد لأن دولها كانت حديثة عهد بالاستقلال شديدة الحرص عليه ولم تقبل أن تتنازل عن شئ من سيادتها فى سبيل تكوين اتحاد عام وقد دفعتها عوامل التنافس والغيرة والطمع الى محاولة التفوق على الغير فى البر أو البحر ونشأت عن ذلك فكرة التوازن الدولى التى قضت على الدولة بضرورة التحالف ضد كل دولة تعمل بالقوة أو المصاهرة إلى توسيع سلطانها بدرجة تجعلها خطرة على الدول الأخرى . وفى سبيل هذا التوازن قامت حروب القرنين السابع عشر والثامن عشر ضد لويس الرابع عشر ملك فرنسا وضد فردريك الأكبر ملك بروسيا .

وبذلك انقضى القرن الثامن عشر وفكرة التعاون الدولى لم تتعد صفحات الكتب والرسائل ولم تخرج عن نطاق أوروبا وحدها .

ثم جاء القرن "العشرون" وفى تلك الحقبة من الزمن تطورت فكرة التعاون الدولى وأخذت تظهر بمظاهر شتى ولكنها أصيبت فى النهاية كسابقاتها بالإعياء والفشل .

وأول مظهر من مظاهر الاتحاد الدولى والتعاون السياسى فى القرن العشرين محاولة نابليون بونابرت تجديد عهد الاسكندر وقيصر وتأليف نظام أوروبى عام تخضع له شعوب أوروبا وترتبط أجزاؤه بعضها ببعض بقوة السيف وبأواصر القرابة والنسب وقد مهد لغرضه هذا بزواجه من ابنة أمبراطور النمسا ماري لويز "وبإعلان" إخوته ملوكا على دول "أوروبا" المختلفة غير أن بقاء انجلترا بمعزل عن النظام "الأوروبى" الذى أقامه نابليون فى القارة واستمرارها على مناوءته وخروج روسيا عليه بعد اتحادها معه وظهور "روح" القومية بين الشعوب التى أخضعها نابليون بالقوة كل ذلك أدى الى تألب الدول ضده فى النهاية .

فلما انعقد مؤتمر فينا فى سنة ١٨١٥ لوضع قرارات الصلح شعرت الدول أن لا بد لها من نظام يصونها من خطر ظهور نابليون آخر ويعصمها من ويل الثورات والحروب فى الداخل والخارج فكان نظام المؤتمر أو الاتحاد "الأوربى" هو النظام الدولى السياسى الذى خدم أوروبا طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الى سنة ١٩١٤ حين قامت الحرب الكبرى الأولى ويعتبر المؤتمر "الأوربى" أول محاولة جدية فى سبيل تنفيذ فكرة التعاون بين الدول "الأوربية" الحديثة وكانت الفكرة من تصنيف قيصر الروسيا إسكندر الأول وكان رجلا "تسهويه" النظريات والمشروعات ذا مسحة دينية ، فحاط المؤتمر ومشروع الاتحاد الأوربى بهالة من الاخاء والمحبة والعاطفة المسيحية مما دعى الى تسمية هذا الاتحاد بالمحالفة المقدسة .

وقد أرادت الدول من المؤتمر تأدية غرضين الأول مستمد من سياسة القرن الثامن عشر التى كانت ترمى الى حفظ التوازن الدولى وذلك بصيانة "التسويات" الإقليمية التى وافق عليها المؤتمر فى فينا ضد الأخطار التى كانت تهددها ولا سيما من جانب فرنسا ، والغرض الثانى يعتبر فتحا جديدا فى تاريخ التعاون بين الدول إذ اتفقت الدول فيما بينها على أن يجتمع "مندوبون" عنها فى أماكن يتفق عليها لاتخاذ الوسائل التى تكفل استقرار السلام وسعادة الشعوب ، ويجب أن نقرر هنا أن المقصود بسعادة الشعوب قمع الثورات التى قد تقوم ضد الملوك كما قامت الثورة الفرنسية من قبل .

أما مشاورة الدول بعضها بعضا واجتماعها معا على قدم المساواة لمنع الحرب واستقرار السلم فكان غرضا نبيلا اندفعت نحوه الدول الكبرى لأول مرة فى تاريخها الحديث وفى سبيل

تحقيق هذا الغرض لم تختلف الدول إذ ذاك ، وأما قمع الثورات بالتدخل فى الشئون الداخلية الصرفة للأمم وبخاصة الصغيرة منها فكان مثار خلاف عظيم انقسمت من أجله أوربا إلى فريقين فكانت النمسا و بروسيا ومعهما الروسيا فى الغالب تمثل الروح الرجعية، أما إنجلترا ومعها فرنسا أحيانا فكانت تأبى على المؤتمر تدخله فى الشئون الداخلية للأمم ولذلك الترمت نحو المؤتمر سياسة خاصة فكانت أحيانا تعلن عزلتها عن المؤتمر وتكتفى بالاشتراك الاسمى ومجرد حضور الجلسات ، وأحيانا كان اشتراكها عمليا عندما كان تدخلها يوافق مصلحتها، على أن المؤتمر ما لبث أن أصبح أداة استبداديه يستعملها مترنخ الوزير النمسوى الشهير الذى اقترن اسمه وسياسته النصف الأول من القرن التاسع عشر فى قمع الثورات و إرهاب الشعوب الصغيرة ومناهضة مبادئ الحرية والقومية فى أوربا عامة .

ثم حدث تطور سياسى جديد فى علاقات الأمم وذلك على أثر قيام حرب القرم بين روسيا وتركيا فى منتصف القرن التاسع عشر سنة ١٨٥٣ وكانت الاختراعات مثل السكك الحديدية والسفن البخارية والتلغرافات واستخدام الفحم والحديد فى الصناعة قد انتشرت فى أنحاء العالم وأحدثت انقلابا عظيما ظهر أثره فى تقريب المسافات وتوثيق الروابط بين الأمم وأصبح ما يصيب عضوا فى المجتمع تهتز له سائر الأعضاء .

وفى هذه الحرب حدث أمر ذو بال إذ انحازت انجلترا وفرنسا وسردينيا أو ايطاليا الى جانب تركيا فانهزمت روسيا وعقدوا مؤتمرا للصلح فى باريس سنة ١٨٥٦ وكان مؤتمراً خطيرا اتخذت فيه قرارات خطيرة لضمان السلام والتعاون بين الدول . وأول هذه القرارات قبول تركيا على قدم المساواة فى مجموعة دول أوربا المسيحية ولم تكن تركيا قد اشتركت أو دعيت الى الاشتراك فى مؤتمر فينا أو المؤتمرات التى تلت اللهم إلا فى المؤتمرات الخاصة بشؤون تركيا وأملاكها .

وهناك مادة أضافوها الى معاهدة الصلح خواها أن تلجأ الدول المتعاقدة إذا استحكم بينها الخلاف الى دولة صديقة أو محايدة تقوم بالتحكيم بين المتخاصمين وأرادوا أن يجعلوا من هذه المادة قاعدة تسرى على سائر الدول فقالوا إن للدول التى لم تشترك فى معاهدة الصلح أن تعلن انضمامها الى هذا العهد . غير أن هذه المحاولة لم تجد إذ اعتبرت الدول أن هذه مجرد رغبة أو أمنية وليست قرارا ملزما وكانت النتيجة أنه بعد ثلاث سنوات من توقيع معاهدة باريس قامت الحرب بين إيطاليا وفرنسا من جهة وبين النمسا من جهة أخرى ثم ظهرت الروح العسكرية البروسية لأول مرة فى القرن الماضى وأخذت تشق طريقها بالدم والحديد نحو السيطرة والتفوق فحاربت النمسا وهزمتها سنة ١٨٦١ ثم حاربت فرنسا وهزمتها سنة ١٨٧٠ ، وفى سنة ١٨٧٦ قامت الحرب الروسية التركية من جديد ولم تفد فكرة التحكيم التى جاءت فى صلح باريس ولم تغن عن الحرب فتيلا .

وهكذا تكسرت آمال أنصار التعاون والسلام أمام مطامع الدول وشدة حرصها على سيادتها وسمعتها واتساع رقعتها . ولكن مقابل هـذا الفشل السياسى فى القرن التاسع عشر خطت فكرة التعاون الدولى خطوات واسعة فى نواح أخرى . ومما يزيد فى أهمية هذه الخطوات أنها استطالت حتى شملت البلاد المتمدينة فى جميع أنحاء العالم ولم تعد مقصورة على أوربا كما كانت الحـال أولا فانعقدت مؤتمرات دولية لعمل الترتيبات اللازمـة لجعل شؤون البريد مصلحة دولية زيادة على كونه مصلحة وطنية وتكوّن اتحاد البريد فى سنة ١٨٧٤ وأخذت الدول تنضم تباعا اليه وأعلن مبدأ حرية التجارة لتوثيق الصلات بين الشعوب، وفى هذا القرن ألغى الرقيق سنة ١٨٣٣ وتكونت جمعية الصليب الأحمر الدولية فى جنيف على أثر الانتهاء من حرب القرم تتابعت المؤتمرات الدولية حتى نمت من لا شىء فى أول القرن الى ٢٩ مؤتمر فى سنة ١٨٦٠ — والى ٢٤٧ وفى سنة ١٨٨٠ الى ٨٥١ فى سنة ١٩٠٠ الى ٢٣٤٩ فى سنة ١٩٢٠ ، ثم اضطردت الزيادة الى أكثر من ذلك .

على أن القرن التاسع عشر لم ينته من غير محاولة أخيرة فى سبيل التعاون الدولى ومنع الحرب ففى أغسطس سنة ١٨٩٨ دعا قيصر الروسيا نقولا الثانى الى عقد مؤتمر دولى لوضع حد للتسابق فى التسليح ولتسوية الخلافات الدوليـة بطريق السلم . فانعقد المؤتمر فى لاهاى فى مايو سنة ١٨٩٩ واشتركت فيه ٢٦ دولة وانعقد المؤتمر للمرة الثانية فى لاهاى أيضا بدعوة من روزفلت رئيس الولايات المتحدة فى يونيه سـنة ١٩٠٧ واشتركت فيه ٤٢ دولة أى معظم الدول المستقلة فى العالم كله لا فى أوربا وحدها . وقد نجح المؤتمر الى درجة ما ، فى تقرير خطة لتسوية الخلافات الدولية فقرر تأليف محكمة دولية دائمة للتحكيم فى لاهاى فترسل اليها كل دولة مشتركة عددا من القضاة الممتازين لا يزيد عادة على أربعة وللجانبين المتنازعين أن يختاروا كل منهما قاضيا خامسا يكون بمثابة رئيس لهم لبحث الخلاف و إصدار حكم فيه والى جانب التحكيم أشار المؤتمر بطريقة التوسط بين الدول المتنازعة وحض الدول أيا كانت على التدخل لمنع الحرب دون أن يعتبر توسطها تدخلا أو تطفلا أو عملا غير ودى نحو أحد المتخاصمين .

ويعتبر إقرار مبدأ التحكيم الدولى و إنشاء المحكمة الدائمة فى لاهاى من أهم الأعمال التى تمت قبل الحرب الكبرى الأولى لضمان السلام العام وتعزيز فكرة التعاون بين الدول .

ونلاحظ هنا بشأن محكمة التحكيم أولا أن هيئة المحكمة لم تكن ثابتة بل ترك للدول اختيار قضاتها وهذه مبالغة فى احترام السيادة الذاتية لكل دولة . ثانيا — أن هناك خلافات معينة لم تدخل فى اختصاص المحكمة وهى المتعلقة بالاستقلال والشرف والمصالح الحيوية لذلك لن يحل اقرار مبدأ التحكيم دون قيام الحرب بين روسيا واليابان سنة ١٩٠٥ وبين إيطاليا وتركيا سنة ١٩١١ وحروب البلقان سنة ١٩١٣ ثم قيام الحرب الكبرى الأولى سنة ١٩١٤

والنتيجة أن جهود الدول فى القرن التاسع عشر بدأت بالأمانى المسيحية الطيبة التى أعلنها قيصر روسيا اسكندر الأول سنة ١٨١٥ والتى أطلق عليها المحالفة المقدسة وهى التى أنتجت الكونسرت. وانتهى القرن باعلان نفس الرغبات والأمانى الطيبة على يد أحد أحفاد الاسكندر حين اقترح عقد مؤتمر لاهاى سنة ١٨٩٩

وأما فى النواحى غير السياسية فى المواصلات والطب والتشريع الدولى فان جهود الشعوب مع الحكومات قد أنتجت تعاونا دوليا يمكن اعتباره أساسا ونموذجا يحتذى عند ما تعود الدول الى حالتها الطبيعية ، ويكفى أن تنظر الى نظام اتحاد البريد العام لتدرك أهمية هذه الجهود . فاتحاد البريد الآن يضم جميع دول العالم وكل منها يتمتع بحرية داخل حدودها ولكنها مرتبطة بتنفيذ قواعد خاصة يشرف عليها المكتب العام فى جنيف . وينعقد المؤتمر العام للبريد بنظام وعلى الحكومات تنفيذ قراراته مهما بلغ اعتراضها .

والآن ننتقل الى المرحلة الأخيرة التى تلت الحرب الكبرى الأولى على أثر قيام الحرب الكبرى وما قاسته الشعوب والحكومات من خطوبها وويلاتها تألفت فى كثير من البلاد جماعات مدفوعة بشعور واحد هو منع وقوع كارثة الحرب مرة أخرى Never again. ولما وجدت كفة الحلفاء فى الحرب عقب دخول الولايات المتحدة أخذت حكومات الحلفاء تستعد للصلح . وفى يناير سنة ١٩١٨ أعلن الرئيس ولسن دستور النقط الأربعة عشر التى اعتبرها قواعد للسلم الجديد فى العالم . ومن هذه النقط حق تقرير المصير للشعوب وإلغاء المعاهدات السرية بين الدول واعلان حرية البحار وحرية التجارة وتخفيض التسليح وأخيرا النقطة الخاصة بتفهيم جمعية الأمم على أساس ميثاق يكون الغرض منه أن تضمن الدول بعضها لبعض استقلالها السياسى وسلامة أراضيها دون تمييز بين دولة وأخرى كبيرة أو صغيرة .

وكان لدستور ولسن دوى عظيم بين شعوب العالم قاطبة ويعتبر من أهم التعاليم السياسية التى تأثر بها العالم بعد الحرب . ولما حل ولسن بأرض فرنسا ليحضر المؤتمر وكانت باريس تموج بطوائف من جميع شعوب العالم تنتظر ميلاد العهد الجديد فى قصر فرساى كانت الجموع تغضى ببصرها أمام الرئيس وتحنى له الجباه كما لو كان أحد الآلهة القدماء جاء عبر الاطلنطى ليخلص العالم القديم مما خلفته الأجيال الماضية من خلافات وشرور وآثام .

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن الآلة الجديدة مصنوعة من الطين كباقى مخلوقات الله من بنى آدم وأن ولسن قد تردى فى مباءة السياسة الأوروبية وانغمس فى أوحالها وأن المبادئ العالية والنقط الأربعة عشر قد انهدمت بانيها وتبخر معظمها مما دعى (كلمنصو) رئيس وزارة فرنسا ورئيس مؤتمر إذ ذاك أن يقول متهكما أن ولسن قد طغى وتكبر على الله فقد جاء بأربع عشرة نقطة ، والله جلت قدرته قد أتى بعشر فقط .

وأخيرا وبعد مداولات ومناورات وبعد روحات وغدوات ونضال ونزال خرج ولسن من المؤتمر يحمل طفلا هزيلا يحسبه الرائى الى الموت أقرب منه الى الحياة فأسرع فى تسجيله فى دفتر مواليد سنة ١٩١٩ باسم ميثاق عصبة الأمم وما كاد الطفل يرى النور ويسمع العالم صراخه ويتعرف عليه حتى أنكره أبوه وولى عنه مدبرا الى أميركا تاركا طفله يتربى يتيما محروما مسلوب الارادة تراه كلما قست عليه الظروف وادلهمت حوله الخطوب يقلب وجهه فى السماء وفى الأرض وفى الماء باحثا عن أمه وأبيه وعن فصيلته التى تؤويه فلا يرى مجيبا ولا سميعا هذه عصبة الأمم التى أريقت فى سبيل الوصول اليها دماء تسعة ملايين من الأنفس عدا الجرحى والثائهين والمنكوبين فى آبائهم وثرواتهم وأجسامهم وعقولهم . ولكن يجب ألا ننسى أن نظام العصبة يمتاز على نظام المؤتمر أو الكونسرت الأوروبى الذى فسرنا الكلام عنه من وجوه عدة

١ — أن المؤتمر كان مقصورا على دول أوروبا العظمى .

أما فى عهد العصبة فقد فتح الباب للدول المستقلة التى تحكم نفسها لا فى أوربا فحسب بل فى العالم أجمع .

٢ — فى نظام المؤتمر لم يعين فترات لانعقاده بل كان المؤتمر يجتمع كلما جدت ظروف تستدعى ذلك وكلما شعرت الدول بالحاجة الى التشاور والتعاون .

أما فى العصبة فاتخذت لها مقرا معينا فى جنيف وتجتمع جمعيتها العمومية مرة فى كل عام على الأقل ويجتمع المجلس مرة كل ثلاثة شهور .

٣ — لم تكن للمؤتمر سكرتارية دائمة تنظم أعماله وتكون واسطة الاتصال بين الدول كما يقوم بالدعوة الى عقد الجلسات .

أما فى العصبة فتعتبر السكرتارية العامة الاداة الساهرة الظاهرة الأثر النشيطة الفعالة .

وليس العصبة جامعة للأمم حقيقة فالولايات المتحدة صاحبة الفضل فى انشائها لم تكن عضوا بها وكان عدم اشتراكها أحد العوامل التى أدت الى إضعاف كلمتها يضاف الى ذلك أن للاعضاء حق الانسحاب عن العصبة .

وأما عن مدلول كلمة الأمم فالحقيقة أنها عصبة حكومات لأن الحكومات هى التى تعين "مندوبين" عن الدول المشتركة .

ويمكن ارجاع فشل العصبة الى ما يأتى :

١ — أنهم بالغوا فى تمسك كل دولة بحق سيادتها الذاتية ولن يمسوا هذه السيادة بشىء ولو قليل فى سبيل الصالح العام فمن أجل التمسك بحق السيادة تركوا للدول حق الانسحاب من العصبة مع أن مصدر القوة للعصبة هو التماسك والاتفاق بين الجميع فأى عمل من

شأنه عدم اشتراك الدول وخاصة الدول الكبرى لابد أن يؤدى الى ضعف العصبة ، لذلك كان عدم اشتراك الولايات المتحدة صاحبة الفكرة من أهم العوامل فى ضعف العصبة وكذلك كان إبعاد ألمانيا وروسيا وتركيا فى أول عهد تكوين العصبة من أسباب ضعفها .

ولقد تحسنت الحال نوعا بعد انضمام ألمانيا فى سنة ١٩٢٦ غير أن خروجها من العصبة عقب قيام الحكم النازى سنة ١٩٣٣ قد أعاد الحال إلى ما كانت عليه ولم تنصلح بدخول روسيا سنة ١٩٣٢ فقد انسحبت اليابان على أثر تحديها العصبة سنة ١٩٣٢ بسبب اشتباكها مع الصين وخرجت إيطاليا على أثر توقيع العقوبات الاقتصادية عليها سنة ١٩٣٥

٢ — كذلك كانت المبالغة فى المحافظة على بناء السيادة لكل دولة سببا فى اشتراط اجماع الآراء فى القرارات التى يصدرها مجلس العصبة أو الجمعية العمومية وهذا الشرط كان سببا فى شل قرارات العصبة وتعذر تنفيذها بمجرد مخالفة إحدى الدول لها كما حصل فى أثناء أزمة ايطاليا والحبشة . فقد ظهر تحيز فرنسا لايطاليا حين كان لافال وزيرا للخارجية وتعذر الاجماع بين الدول .

٣ — من أهم أسباب فشل العصبة عدم وجود قوة تنفيذية علميا تتولى تنفيذ قرارات العصبة فى حالة عصيان إحدى الدول .

وقد اكتفى واضعو نظام العصبة بمبدأ الضمان أو التأمين المشترك وبه تسلح كل دولة مشتركة ضامنة لاستقلال زميلاتها وسلامة أراضيها فاذا اعتدت دولة على إحدى الدول المشتركة أو عددتها بالحرب فان جميع الدول المشتركة تعتبر هذا التهديد ماسا بها جميعا وعلى مجلس العصبة أن يتخذ الإجراءات التى يراها كفيلة لتأمين السلام بين الأمم ، وفات واضعى نظام العصبة أن هناك دول معينة ستقع عليها مسئولية التأمين دون غيرها وأن الدول الأخرى ستنتفع بالتأمين دون تحمل أية نفقة ولما كانت العقوبات التى نص عليها ميثاق العصبة فى المادة ١٦ ضد الدولة التى تهدد السلام ولا ترتدع هى عقوبات اقتصادية تقوم على الحصر البحرى لذلك نرى أن التأمين كله تقريبا كان لا بد أن يقع على كاهل انجلترا وهى الدولة البحرية التى تستطيع تنفيذ الحصر البحرى بالذات . وقد كانت انجلترا فى أول الأمر معتمدة على الولايات المتحدة ولكن الشعب الأميركى ظل متمسكا بمبدأ العزلة عن أوروبا والتحصن وراء مبدأ مونرو وعدم الاشتراك مع دول أوروبا فى ميثاق العصبة وتحمل تكاليف التأمين .

فلما تطورت الحال فى الغرب وأخذت إيطاليا تسلح نفسها فى البحر الأبيض المتوسط واليابان تسلح نفسها فى المحيط الهادى أصبح من المتعذر على انجلترا تحمل المسؤولية جميعها فتركت اليابان تحتل منشوريا سنة ١٩٣٢ وتهزأ بقرارات العصبة فى الشرق وتعبث باستقلال الصين كما شاءت .

ولما تحرشت ايطاليا بالحبشة وأخذت تعد العدة لها استغلت بطء الاجراءات فى العصبة وعدم وجود القوة التنفيذية العليا كما استغلت مخالفة فرنسا لقرار العصبة وأوغلت فى هجومها على الحبشة تحت سمع العصبة و بصرها ولم تستطع انجلترا تحمل مسؤلية حرب أوروبية لو أنها جازفت بها لتفادت وقوع الكارثة الحالية من غير شك وكان خروج ايطاليا من العصبة وتحديها لقراراتها ونجاحها فى مشروعها الضربة التى أصابت العصبة فى الصميم وشجعت ألمانيا على المضى فى برنامج التسلح الذى وضعته فاعلنت التجنيد الاجبارى سنة ١٩٣٥ متحدية وذلك معاهدة فرساى، وفى سنة ١٩٣٦ احتلت جيوشها أرض الرين وأقامت فيه الحصون مخالفة بذلك عهد لوكارنو ١٩٢٥ وفى سنة ١٩٢٨ صمت النمسا وفى سبتمبر سنة ١٩٣٨ اعتدت على تشيكوسلوفاكيا ولم تحرك العصبة ساكنا حتى اذا دنت ساعة الكارثة فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ كانت أوروبا تحترق والعصبة تغط فى النوم .

تبقى المرحلة الأخيرة — بعد عصبة الأمم لم تبق إلا محاولتان أخيرتان فى سبيل تأمين السلام — المحاولة الأولى جاءت على يد أميركا فى سنة ١٩٢٨ باعلان ميثاق كلوج وهو وزير خارجية أميركا فى ذلك الوقت . فقد اتفق مع المسيو بريان وزير فرنسا على أخذ إقرار صريح من الدول الموقعة على الميثاق باستنكار الحرب كأداة لحل مشكلاتها الدولية والتعهد بتسوية منازعاتها بالطرق السلمية وقد وقع على الميثاق خمس وستون دولة أى أكثر من الدول المشتركة فى العصبة . ومع أهمية هذا الإقرار من دول العالم تقريبا فان الميثاق لم يعدو كونه عملا صالحا وأمنية شريفة إذ لم ينص فيه على طريقة إرغام الدولة التى تخالف الميثاق كما أن الدول من جانبها فسرت الحرب بأنها الهجوم أما الحرب بمعنى الدفاع فاعتبرتها الدول حقا لها لا سبيل للنزول عنه لا بالمواثيق ولا بالعصبة ولا بغيرهما ومن ذلك تفهم سر تحول وزارات الحربية فى العالم الى وزارات للدفاع ولو بالاسم .

وفى سنة ١٩٣٠ أصدر مسيو بريان وزير فرنسا مشروع الاتحاد الأوروبى وأخطر به الدول لتبدى رأيها فيه وقد أراد به أن يكون بمثابة تنظيم داخل العصبة فتجتمع دول أوروبا فى اتحاد واحد على نظام الولايات المتحدة فكل ولاية فيها حكومة مستقلة تماما عن غيرها وهناك سلطة فيدرائية أو اتحادية تختص بالنظر فى الشؤون الخاصة بالجيش والاسطول والتجارة والعملة والمواصلات والخارجية . وعند الخلاف تحكم الولايات المتنازعة على المحكمة العليا صاحبة الرأى الأعلى .

والغريب أن بريان دعا فى مشروعه الى مثل هذا الاتحاد مع بقاء الدول مستمتعة بكامل استقلالها وسيادتها .

ويكفى أن نعلم أن المشروع أبصر النور فى ١٩٣٠ لندرك مقدار ما أصابه من نجاح أو فشل . فقد انساقت الدول منذ سنة ١٩٣٠ فى طريق التدهور المالى والسياسى وانحدرت الى التنافس فى التسليح الى أن اشتد الخلاف بينها وأصبح التعاون بينها أثرا بعد عين .

تبقى كلمة ختامية عن نظام التعاون السياسى الذى يجب أن يسود .

يجب أن يقضى نهائيا على الحواجز والأسوار التى تقيمها الدول بينها سواء كانت حواجز جمركية أو سياسية . يجب أن يقضى على سياسة العزلة أو الكفاية الذاتية لأنه نظام عتيق لا يوافق التطور الاقتصادي والاجتماعى الذى وصل اليه العالم بفضل المخترعات العلمية والصناعية وما ينتظرها من تقدم مطرد .

يجب أن تتدرب الشعوب فى سياسة الوحدة العالمية . ولا نريد أن نقول بامكان تأليف اتحاد عالمى الآن . إنما لا بد أن تمرن الشعوب على قبول الآراء والنظم الجديدة . فمن أجل فكرة التسامح الدينى قامت الحروب بين الشعوب قرنين أو ثلاثة قرون ولا يزال أثر التعصب الدينى موجودا فى العالم إلى الآن . ومن أجل الحرية والاستقلال والحريات القومية قد كافحت الشعوب سنين طويلة ولا تزال هناك شعوب ترزح فى الاستعباد ولا تتمتع باستقلال أو وحدة قومية . وفكرة التعاون السياسى لا تزل فى طفولتها ولم تلق من الدول أو الشعوب ما يساعد على التدرج فى توسيع الفكرة .

وقد كانت انجلترا فى الماضى والولايات المتحدة الى الآن ترى فى عزلتها عن أوروبا أكبر معوان لها على التمتع باستقلالها وسلامتها من الحروب . أما الآن وقد تضافرت القوى الطبيعية والعملية على القضاء على خرافة العزلة المنيعة بعد انتشار الكهرباء واللاسلكى والطيران وتقدم المواصلات بدرجة جعلت المسافات بين الممالك تقطع فى زمن أقصر مما كان يستلزمه الانتقال فى الماضى بين المدن فى المملكة الواحدة . وبما أن هذه السرعة فى المواصلات مع استخدام المخترعات الحديثة قد حولت الحرب من ظاهرة محلية أو قارية الى ظاهرة دولية عالمية وان قوة التدمير أو التخريب فى الحروب لا يقتصر أثرها على الحصون والمحاربين والأهداف العسكرية ؛ ولكنها تعم الأنحاء وتكسح الأرجاء ويستهدف لها النساء والأطفال والعجزة والمحايدون كغيرهم من المحاربين لذلك كله تحولت انجلترا تدريجا من سياسة العزلة الى السياسة القارية واضطرت أميركا أخيرا الى الخروج من عزلتها ومسايرة العالم الحر فى ارتباط حلقاته وتضامن أجزائه ولا شك أن أميركا بعد الحرب الحاضرة ستشترك بكامل قوتها فى تنظيم التعاون العالمى مع باقى الدول ولن تعود الى سابق غلطتها فى اعتزال السياسة الأوروبية بعد انتهاء الحرب كما فعلت فى الحرب الكبرى الأولى .

وعندى أن أوفق الآراء أن يعاد النظر فى نظام العصبة الذى جربناه وخبرناه وبنيناه بجهودنا مدة عشرين عاما عرفنا فيه مواضع الضعف والقوة على أن تتألف العصبة لا من مندوبين عن الحكومات كما هى الحال الآن بل من مندوبين عن الشعوب المتحدة . فيتألف من الدول اتحادات كل اتحاد من مجموعة متجانسة من الدول فيكون هنالك اتحاد من شعوب البلقان وآخر من الشعوب الشمالية واتحاد لدول وسط أوروبا لاتينى واتحاد أميركى واتحاد للشرق الأوسط يجمع بين مصر والسودان والحبشة والعراق وفلسطين وسوريا ولبنان وبلاد العرب الى آخره . وبذلك تحتفظ كل أمة باستقلالها وبنظام الحكم فى داخليتها وتشترك الأمم المكونة لكل اتحاد فى سياستها الخارجية وفى وسائل دفاعها وتجارتها وعملتها . وذلك بتكوين مجلس اتحادى يمثل جميع أعضاء الاتحاد ويكون من اختصاصه الفصل فى هذه المسائل .

ويجب أن نذكر أن تأليف هـذه الاتحادات ليس بدعا ولا يعد من قبيل الخيالات أو الرغبات النظرية بل ان هذا النظام قائم فى سويسرا وفى الولايات المتحدة وقائم اقتصاديا فى أتحاد البريد والتلغراف والراديو .

وكلنا نذكر ما اقترحته انجلترا على فرنسا عند ما أحدق بها الخطر الألمانى فى صيف سنة ١٩٤٠ إذ عرضت عليها رسميا أن تتحد معها فى حكومة واحدة ولولا الضغط الألمانى لقبلت فرنسا .

ولا ننسى أن مجموعة الأمم الحرة التى تنتظمها الامبراطورية البريطانية الآن ما هى إلا اتحاد متجانس بين دول وشعوب مستقلة تماما ولها وزاراتها وبرلماناتها وهذه البرلمانات هى التى تقرر حتى السلم والحرب دون ارتباط بما يفعله برلمان انجلترا .

ومتى تم تكوين هذه الاتحادات وتألف من مندوبيها المنتخبين لا المعينين مجلس العصبة أصبحت قضية التعاون والسلام بين الأمم فى يد الشعوب لا فى يد الحكومات وإرادة الشعوب إذا اجتمعت كانت أقوى من جيوش العالم طرا .